ROWAQ MAYSALOON
رواق ميسلون
دراسات سياسية وثقافية
Political and Cultural Studies
مجلة فصليّة تصدر عن مؤسسة ميسلون للثقافة والترجمة والنشر

الثورة السوريّة: هُزمت أم ما زالت مستمرّة؟

في هذا العدد

■ حوار العدد؛
- بينت شيلر
- سميح شقير

■ راتب شعبو؛
النجاح والإخفاق في الثورة
■ محمد عمر كرداس؛
الثورة السورية: قراءة في أسباب الهزيمة وما بعدها

■ شخصية العدد؛
إلياس مرقص

العدد التاسع نيسان/ أبريل 2023

رواق ميسلون
ROWAQ MAYSALOON

العدد التاسع
نيسان/ أبريل 2023

التحرير

رئيس التحرير
Editor in Chief
حازم نهار
Hazem Nahar
مدير التحرير
Editorial Manager
نور حريري
Nour Hariri
سكرتير التحرير
Editorial Secretary
وسيم حسان
Wasim Hassan
المحرر الثقافي
Cultural Editor
راتب شعبو
Rateb Shabo
هيئة التحرير
Editorial Board
جَوى العامري
Jawa Alamiri
خلود الزغيّر
Kholoud El-Zughayyar
ريمون المعلولي
Rimon Almaloly
غسان مرتضى
Ghassan Mortada

الهيئة الاستشارية

أيوب أبو دية
Ayoub Abudeah
(الأردن)
Jordan
جاد الكريم الجباعي
Gadalkareem Aljebaei
(سورية)
Syria
حسن نافعة
Hasan Nafaa
(مصر)
Egypt
خالد الدخيل
Khaled Eldakhil
(السعودية)
Saudi Arabia
خطار أبو دياب
Khatar Abu Diab
(لبنان)
Syria
دلال البزري
Dalal Al Bizri
(لبنان)
Lebanon
سعيد ناشيد
Saeed Nashed
(المغرب)
Morocco
سمير التقي
Samir Altaki
(سورية)
Syria
عارف دليلة
Aref Dalila
(سورية)
Syria
عبد الحسين شعبان
Abd Alhusain Shaban
(العراق)
Iraq
عبد الوهاب بدرخان
Abd Alwahab Badrkhan
(لبنان)
Lebanon
كارستين فيلاند
Carsten Wieland
(ألمانيا)
German
كمال عبد اللطيف
Kamal Abdelateef
(المغرب)
Morocco

التدقيق اللغوي
Proofreading
شيري أيهم
Shery Ayham
التصميم والإخراج
Design and Layout
شيرين فوزي
Sherein Fawzy
المشرف التقني
Technical Supervisor
طارق رضوان
Tarek Redowan

ميسلون للثقافة والترجمة والنشر

مؤسسة ثقافية وبحثية مستقلة، غير ربحية، تُعنى بإنتاج ونشر الدراسات والبحوث والكتب التي تتناول القضايا السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية في منطقة الشرق الأوسط، وتولي اهتمامًا رئيسًا بالترجمة بين اللغات الأوروبية، الإنكليزية والفرنسية والألمانية، واللغة العربية. وتهدف إلى الإسهام في التنمية الثقافية والتفكير النقدي والاعتناء الجاد بالبحث العلمي والابتكار، وإلى تعميم قيم الحوار والديمقراطية واحترام حقوق الإنسان. وتسعى لتبادل الثقافة والمعرفة والخبرات، وإقامة شراكات وعلاقات تعاون وثيقة مع المؤسسات والمعاهد والمراكز الثقافية والعلمية، العربية والأوروبية. وتؤمن بأهمية تعليم وتدريب الشباب، والأخذ بيدهم، والارتقاء بهم ومعهم في سلّم الإبداع والإنتاج، وتعمل لتكون خططها التدريبية متوافقة مع المعايير العالمية، بالتعاون مع مجموعة من الخبراء العرب والأوروبيين.

رواق ميسلون

مجلة «رواق ميسلون» للدراسات الفكرية والسياسية؛ مجلة بحثية علمية، فصلية، تصدر كل ثلاثة أشهر عن مؤسسة ميسلون للثقافة والترجمة والنشر، ولها رقم دولي معياري (ISSN: 2757-8909). وتُعنى بنشر الدراسات ومراجعات الكتب، ويتضمن كل عدد منها ملفًا رئيسًا ومجموعة من الأبواب الثابتة. وللمجلة هيئة تحرير متخصِّصة، وهيئة استشارية تشرف عليها، وتستند المجلة إلى أخلاقيات البحث العلمي، وقواعد النشر المعتمدة عالميًا، وإلى نواظم واضحة في العلاقة مع الباحثين، وإلى لائحة داخلية تنظّم عملية التقويم.

تطمح المجلة إلى طرق أبواب فكرية سياسية جديدة، عبر إطلاق عملية فكرية بحثية معمّقة أساسها إعمال النقد والمراجعة وإثارة الأسئلة، وتفكيك القضايا، وبناء قضايا أخرى جديدة، وتولي التفكير النقدي أهمية كبرى بوصفه أداة فاعلة لإعادة النظر في الأيديولوجيات والاتجاهات الفكرية المختلفة السائدة.

اللوحات في هذا العدد للفنان التشكيلي
السوري سامر إسماعيل

المراسلات باسم رئيس التحرير على البريد الإلكتروني:
rowaq@maysaloon.fr

باريس، فرنسا: 0033 7 66 60 08 90
إسطنبول، تركيا: 0090 531 245 0871
الموقع الإلكتروني: www.maysaloon.fr
البريد الإلكتروني: info@maysaloon.fr

شخصية العدد
إلياس مرقص

■ الاشتراكية ضرورة يجب أن توعى، الاشتراكية ليست حتمية؛ **إلياس مرقص**

■ إلياس مرقص؛ التأسيس يبدأ بالمفاهيم والوعي الكوني؛ **الزهراء سهيل الطشم**

■ مفهوم العصر؛ تفلسف على عتبة إلياس مرقص؛ **مضر رياض الدبس**

بعض مؤلفات الياس مرقص

إلياس مرقص

مفكر وفيلسوف سوري، ألّفَ عشَراتِ الكتب، وشارك في تأسيس مجلّة (الواقع)، وهيئة تحرير مجلة (الوحدة)، ونشر مقالاتِه في مجلة (دراسات عربية)، ومجلةِ (الفكر العربي)، واشترك معَ ياسين الحافظ في تأسيس (دار الحقيقة) في بيروت، وترجمَ عددًا من الكتب من الفرنسية إلى العربية، مع مقدماتٍ مُطوّلةٍ منه دائمًا، تساوي في أهميتها الكتاب المُترجم نفسه. تُوفي عام 1991، بعد أن ترك مؤلفاتٍ عدة، وترجماتٍ قيّمة، استطاع من خلالها تسليط الضوء على الواقع العربي البائس، ونقدَ الفكر السائد بقسوة، هذا النقد الذي كان يراه الطريق المثلى لبلوغ الكمال.

نذكر من مؤلفات إلياس مرقص العناوين الآتية: (الماركسية السوفياتية والقضايا العربية)، (نقدُ الفكر القوميّ عند ساطعٍ الحصريّ)، (تاريخ الأحزاب الشيوعية)، (الماركسية في عصرِنا)، (المذهب الجدلي والمذهب الوضعي)، (نقد العقلانية العربية) ... إلخ. ومن ترجماته: (تحطيم العقل، أربعة أجزاء، تأليف: جورج لوكاش)، (القرى الأولى في بلاد الشام، تأليف: جاك كوفان)، (الدفاتر الفلسفية، تأليف: لينين)، (المؤلفات السياسية الكبرى، تأليف جان جاك شفاليه)، (حول المسألة اليهودية، تأليف باور وماركس)، (فلسفة عصرِ النهضة، تأليف إرنست بلوخ).

الاشتراكية[1]

إلياس مرقص

– 1 –

الاشتراكية ضرورة يجب أن توعى. الاشتراكية ليست حتمية.

لا شيء حتمي، على الإطلاق. أو: وحده محتوم الواقع. وحده حتميٌّ ما وقعَ. ما لم يقع فهو غير محتوم.

متى يوجد شيء من الأشياء؟ متى يقع واقع؟

الجواب: حين تكتمل شروط الشيء المعنيّ، حين تكتمل تعيّنات الواقع المعيّن.

ما لم تكتمل فهو ليس.

إذا توفّرت 99٪ من شروطه، فهو عينه ليس بعد.

وهذا الواحد بالمئة المتبقي لكي يوجد الشيء، يمكن أن يكون حاسمًا. بالأصح، في حال توفرت الـ 99٪، فإن الصغير المتبقي هو هو الحاسم. عليه يتوقف وجود أو عدم وجود الشيء المعنيّ.

(1) مخطوطة لإلياس مرقص، كتبها في العام 1987، لم تُنشر سابقًا، تركها عند أحد أعضاء (الحزب الشيوعي السوري– المكتب السياسي).

وهذا الواحد بالمئة، ما دمنا نحدد قضية العمل الإنساني، يمكن أن يكون هو الوعي.

ومـا قصدنـاه هـو الوعـي. يمكـن أن نصغّـر النسـبة واحـد في المئـة أو أن نكبرهـا: هـذا لا شـأن لـه، ليسـت القضيـة عدديـة، بـل هـي منطقيـة. ليـس مـن شيء، موجـود مـن دون علّـة كافيـة، يقـول **لايبنتـس** و**هيجـل** إن محاكمتنـا موجهـة ضـد «الحتميـة» الشـهيرة. وهـي محاكمـة صائبـة وبدائيـة أيضًـا.

إذا كان هـذا الحجـر موجـودًا فـي هـذا المـكان عنـد سـفح الجبـل وهيجـل يشـدد: إن الصفـة «كاذبـة» نافلـة، زائـدة، وهـي بالتالـي إضعـاف. إن علّـة غيـر كافيـة ليسـت علّـة.

إن محاكمتنـا موجهـة ضـد «الحتميـة» الشـهيرة، وهـي محاكمـة صائبـة وابتدائيـة أيضًـا، أو عنصريـة Élémentaire كمـا يقـول الفرنسـيون. عنصرهـا العقـل. العلّـة عقـل raison. هكـذا الفرنسـية ولغـات غيرهـا.

هيجـل «يسـتنتج» الوجـود، وجـود شـيء مـن الأشـياء. إن وجـود هـذا الشـيء نتيجـة، نتـاج، ناتـج، مُنتَـج. علـى هـذه المفاهيـم التـي هـي بالفرنسـية conséquence، réseltat، effet وproduit، اللغـة العربيـة تحيـل علـى جـذر واحـد **نتَـج**. وهـذا جيـد شـرط أن نعيـه وأن نسـتثمره.

إنه يقيم مبدأ «استقراء الواقع استنطاق الواقع»، مبدأ «عقل الكون كون العقل».

إن اسـتثماره لغويًـا عربيًـا ليـس اسـتحلابه مـن اللغـة العربيـة. بـل الانتقـال مـن المنطلـق، إلـى الفلسـفة، إلـى علـم الـكلام.

هيجـل يسـتنتج الوجـود، أي يعلـن أنـه ليـس فـي المباشـر، الفـوري، البداهـة، ليـس فـي جوهـر، أصـل، إنـه ناتـج سـيرورات، عمليـات، تحـولات.

ثمـة شـكلان للسـيرورة الموضوعيـة: الطبيعـة، فاعليـة الإنسـان الـذي اتّخـذ هدفًـا، يقـول **لينيـن** في خلاصـة منطـق هيجـل: الكـون كونـان: «الطبيعـة» و«العـالم».

طبيعـة: هـذا ليـس، ليـس بعـد، «عالَـم». إذا كنتـم تقولـون العالـم وتعنـون الطبيعـة، فهـذا تكـرار لا فائـدة منـه، وإن ذهنكـم، روحكـم، عقلكـم يجنـح نحـو الكوسـموس، ويعيدنـا إلـى مـا قبـل علـم الـكلام إلـى مـا قبـل مفهـوم الإنسـان.

الطبيعة يلزمها بعد كثير من التعيّنات لكي تصير عالمًا Monde.

الأشـياء مـن حولكـم ليسـت طبيعـة، بـل هـي «فـي أحسـن حـال» طبيعـة محوّلـة. الطاولـة والكرسـي والجـدار والبيـت والشـوارع والسـيارات والمصانـع والمـدن والحقـول والأغنيـاء والأبقـار وجميـع الأنـواع الأهليـة، كل هـذه الموضوعـات- الأغـراض، هـي نتـاج العمـل الإنسـاني، الصناعـة البشـرية، الاختـراع. حتـى «نصـل» إلـى «الطبيعـة» مجـردة، علينـا أن ننظـر إلـى السـماء والنجـوم فـوق رؤوسـنا، أن «نفكـر» فـي الهـواء الـذي نتنفسـه، فـي المـاء أصـل جميـع الأشـياء بحسـب طاليـس، فـي الضـوء الـذي بفضلـه نـرى الأشـياء لكننـا لا نـراه هـو بحسـب علـم الفيزيـاء فـي المدرسـة. علينـا أن نفكّـر بالطبيعـة المهـدَّدة اليـوم. الطبيعـة، للمعرفـة، ليسـت فـي المباشـر. إنهـا مقولـة فلسـفية كبيـرة، جبـارة، متنوّعـة العلاقـات والاتجاهـات والمعارضـات، ولا سـيما ثنائيـة العلاقـات إزاء العمـل وإزاء الـروح، مـع الرابطـة بيـن الاثنيـن، العمـل والـروح.

التاريخ، تاريخ البشر، هو تاريخ إنتاجهم لوجودهم اجتماعيًا. وجودهم منتَج، ناتج، نتاج.

وجودهم أي حياتهم، عيشهم، بقاؤهم، طعامهم ...إلخ، وعلاقاتهم كافة، مجتمعهم. البشر ينتجون وجودهم ومجتمعهم، دائمًا.

لستَ موجودًا بالبداهة الأصلية، ولستَ موجودًا لأن رجلًا وامرأة مارسا فعل الحب. هذا عنصر لا أكثر. أنت موجود لأنك استهلكتَ كميات من الحليب والخبز واللحم والحبوب والخضار والألبسة والعناية المتنوعة. هذا كله إنتاج دائم واجتماعيّ.

الماء موجود. الفرات والعاصي والسنّ موجود منذ آلاف السنين. مع ذلك على امتداد آلاف السنين ترى عطشى، وليس المهم اليوم أن الماء موجود، ها هو، ترونه أمامكم أو على الخريطة، بل المهم الموجود فيه من عناصر لا تُرى هكذا، المهم مسألة نقاء الماء. مسألة التلوث، ومسألة المستقبل، قضية المجتمع.

إذًا ليس الوجود من جهة والعدم من جهة أخرى، قطبين بعيدين مستقلين ميتين، بل المهم «الوجود والعدم» معًا في عالم التعيين. إذا لم يجاهد البشر ضد العدم فهم ينتكسون ضد العدم. «الله خلق العالم من العدم» أُعطيت في الروح والفكر هذا المعنى: العدم مادّة العالَم. «الوجود مادة وشكل» (أرسطو). هذا يعني المادّة وحدها هي عدم وجود.

المنطقة العربية منطقة معينة مناخيًا وجغرافيًا (منطقة نصف جافة، متوسطية) مصير الأراضي الهامشية أو الحدّية في تاريخنا تكشف جدل الوجود والعدم، وحدة الضدين المفهوميّين. حين لا يكون هناك نضال «يومي»، اجتماعي، عام، ضد الجفاف، التصحّر ...إلخ، عندئذ الصحراء تتقدم، الوجود يتقلّص.

إذن فكرة «الوجود» العربية السائدة فكرة باطلة، هامدة، تنوب عن فكرة الكون Etre، وتلغي الثنائي المفهومي ممكن وواقع، تلغي المفهومية والتاريخية، المنطق والتاريخ.

الاشتراكية ليست «حتمية». الاشتراكية ضرورة يجب أن توعى فعليًا. يمكن الآن أن تتحول البشرية نحو الاشتراكية ويمكن أن تسير نحو الفناء.

إذا لم تسيطر البشرية على النتائج غير المباشرة، على النتائج الاجتماعية والطبيعية، لأفعالها، عندئذٍ فالفناء هو المحتوم. إذا قامت حرب نووية، فالهلاك هو المؤكد، لا الاشتراكية. لقد وصلت البشرية إلى أكبر مفترق في تاريخها. إن نمو الإنتاجيّة هو، وانكشف الآن أكثر من أي وقت مضى وبشكل مفاجئ على أنه، نمو التدميرية أيضًا، نمو قدرة الإنسان على تدمير ذاته وعالمه. إن النهاية لآتية: فإما أن تكون نهاية تقدّم ونظام وحضارة وعالم آخر، نهاية تاريخ من أجل تاريخ آخر، ونهاية «ما قبل تاريخ» من أجل تاريخ أحقّ، أو أن تكون نهاية الجنس البشري.

إما... أو: هكذا هو الخيار. وهو وحده يتفق مع التصور الجدلي المادياني للواقع والتاريخ، مع عشر أطروحات صحيحة عرّف بها ماركس وإنجلز مشروع «تحويل العالم». هذا المشروع أرهن اليوم مما كان في زمنهما.

- 2 -

الاشتراكية حركة تاريخية فعلية. وهذه الحركة الواقعية تنتمي للعصر الحاضر.

الاشتراكية ليست، لم تعد حلمًا، يوتوبيًا، مجرد حلم ومحض يوتوبيا.

الاشتراكية واقع موجود أمامنا، نظام دنيوي تمامًا، نظام قائم في دنيا البشر وتاريخ العالم، له ما له وعليه ما عليه.

الاتحاد السوفياتي ليس فردوسًا. ولا الصين. ولا أي من البلدان الاشتراكية الأكثر أرثوذكسية، إن كان لهذا التعبير معنى.

ولا أكثر انحرافًا عن الأرثوذكسية. لا الاتحاد السوفياتي ولا ألبانيا ولا بولونيا. لا الصين ولا كمبوديا أو فيتنام أو كوبا أو اليمن الجنوبي أو أنغولا، وهكذا دواليك، بدءًا من النموذج الأعلى وصولًا إلى أصغر وأحدث بلد أعلن في إحدى القارات الثلاث اعتناقه الاشتراكية ومعارضته لاقتصاد السوق، أو للملكية الخاصة ...إلخ.

في هذا المشروع الأكبر (تحويل العالم) الذي أعلنه **ماركس** سنة 1845، القضية تبدو في كثير من البلدان تأمين العيش لملايين الأفواه المتزايدة.

الاشتراكية مجتمع «الكفاية والعدل» بحسب صيغة **عبد الناصر**. مبدئيًا، تقوم على الركيزة الرأسمالية كنقيض لها. واقعيًا وعمليًا، إن الاشتراكية في القرن العشرين قامت بدون الكفاية، من أجل تأمين الكفاية والعدل. جميع الدول الاشتراكية واجهت قضية التنمية كقضية أولية.

هذه المسألة «أضيفت» إليها المسألة الديموغرافية في أواسط القرن العشرين والربع الثالث من القرن العشرين، ارتفعت وتيرة نمو السكان إلى ما بين 2٪ و4٪ في بلدان العالم الثالث. والصين، بعد شرود طويل، لجأت أخيرًا إلى تدابير جذرية لتخفيض هذه الوتائر: ولد واحد للأسرة الجديدة في المدينة وولدان في الريف، فقط. بعض الأسر تتخلص من الوليد إذا كان بنتًا. بدلًا من أن يكون ميزان الولادات حسب الجنسين هو 51٪ للذكور و49٪ للبنات –وهو الحالة الطبيعية– الميزان هو 53٪ و47٪، وهذا يعني بلا أي جدال ممكن انتكاسًا إلى قتل الأولاد لدى البعض، لنقل 4٪ من الأولاد. وهذا القتل يتم بطريقة من الطرق. ومن يطاله القانون يعاقب بطبيعة الحال، لكن ليس للقانون والدولة والمجتمع قدرة إلغاء هذه الظاهرة. والصين مصرّة على منع انفجار الصين، وعلى تأمين نمو حقيقي للاقتصاد والدخل والحياة لمليار من البشر الآن وصولًا لمليار وربع أو مليار ونصف لا أكثر بعد ربع قرن أو نصف قرن، كسقف أخير. لقد نجحت الصين في سياستها هذه. وإن ظاهرة قتل البنات تحيلنا في القرن العشرين وفي بلد اشتراكي إلى ماضي البشرية. الماضي ليس ماضيًا وحسب. والنهاية تعيد، في جوانب منها، البداية.

لقد بدأت البشرية من قتل البشر وأكل لحومهم، ومن قتل الأولاد. وإن تقدّمها تقدُّم على ذلك.

انطلاق التاريخ كان الانتقال من افتراس البشر إلى أسرهم واستعبادهم وتشغيلهم: الإنسان عبد. التاريخ تاريخ العبودية. والعبودية تفوّق كبير على ما قبلها.

الاشتراكية حركة راهنة. مئات الملايين من البشر منحازون للاشتراكية، في الشمال والجنوب، في الشرق والغرب.

لا أدري ما إذا كانت فروق الدخل القومي للفرد من الناس تقدَّر بـ 1 إلى 50 أم بـ 1 إلى 100 بين بنغلاديش والولايات المتحدة، بين مالي والسويد، ولن أتوقف عند محدودية هذا المفهوم والمصطلح (الدخل القومي للفرد)، ولكن المعنيّ مُرْعِب على أي حال، وقد نما واستفحل في ربع القرن الأخير، لا العكس.

داخل فرنسا، مثلًا، رغم كل التطور الاجتماعي والديمقراطي (بما فيه التضامن الاجتماعي) في نصف القرن الأخير، ورغم النمو الجبّار للإنتاجية في الصناعة والزراعة ...إلخ، فإن الفروق الطبقية المعاشية ما زالت كبيرة جدًا، وهذه الفروق أكبر أيضًا في تسعة أعشار بلدان العالم الثالث، وبكثير.

التضخم النقدي وسيلة إفقار وإغناء جبارة، تفعل فعلها بلا هوادة داخل بلدان بلا ديمقراطية، بلا حريات، بلا صراع طبقي شعبي حرّ وقانوني ضد النهب الداخلي المربوط بآلية عالمية.

إن التفاؤل البورجوازي المبتذل الذي بشّر بالرفاه للجميع، تباعًا، بفضل نمو التقنية والعلوم، قد انكشف وينكشف كباطل كبير. لقد نمت «الإنتاجية» عشرات المرات، بالمقارنة مع ما كانت عليه قبل نصف قرن أو قرن. والفقر قائم في كل مكان.

توجد فعلًا قضية علاقات إنتاج، ملكية، توزيع، أي هذا المستوى الذي ركّزت عليه «الاشتراكية العلمية» نظرها...

في سنة 1917، بدأ مشروع «تحويل العالم». أعلن العمال الروس جمهورية السوفيات الكونية. إن ثلث البشرية يعيش اليوم في ظل النظام الاشتراكي الموجود. خلافات كثيرة، اتجاهات مختلة إلى هذا الحد أو ذاك، «انحراف» التاريخ عن التوقع (توقع لينين ورفاقه، وتوقع ماركس وإنجلز والبيان الشيوعي وحركة العمال البادئة منذ نيف وقرن)، المدّة أطول، الواقع أكبر ...إلخ، ...إلخ، ولكن أولًا: هذا العالم الاشتراكي وهذه الحركة في العالم شيء جديد، لم يكن موجودًا في القرن الماضي.

الاشتراكية تنتمي لهذا العصر: هذا معناه النظام الاشتراكي لم يوجد في عصور سابقة. ولا المذهب الاشتراكي وُجد في عصور سابقة للعصر البورجوازي. رغم قِدم الفكرة. ثمة فرق بين فكرة اشتراكية ومذهب اشتراكي.

لا مصر القديمة، ولا الصين أو الهند، ولا العرب، ولا سواهم، وُجد في تاريخهم حقبة اشتراكية أو مذهب اشتراكي.

الأديان الكبرى مثلًا، ولا سيما المسيحية أو الإسلام، موقف قبول بالعالم الموجود ودعوة إلى تحسينه. وهذا أسجّله لصالح هذه الأديان. إنه اعتراف بالدنيا بحفظ حق التاريخ.

إن إقامة الاشتراكية أو ما شابه شيء محال قبل ألف سنة أو ألفي سنة أو حتى مئة سنة. نحن الآن في سنة 1987، ولا أعتقد أن أحدًا في الاتحاد السوفياتي أو الصين يعتقد أنهم بلغوا «المثل الأعلى» مهما خفضنا مدلول هذا المصطلح. إن الذين يعتقدون عندنا أن الاشتراكية أو العدالة والحرية ...إلخ

كان يجب أن تتحقق منذ 1400 سنة أو 1200 سنة، يجب أن نقول لهم: ما زال غيرنا بعيدًا اليوم عن حلمكم مع افتراضنا صدقه. الاتحاد السوفياتي أسقط منذ عشرات السنين وأنهى الطبقات والإقطاعية والرأسمالية والبورجوازية ...إلخ وأقام مجتمعًا يختلف جذريًا عن الغرب الرأسمالي، عدا عن الأنظمة السابقة والمزامنة في العالم، ومع ذلك فالمسائل قائمة الآن، وهي مسائل كبيرة. وإذا ما توصل أحفادنا إلى عالم عدالة اجتماعية «نسبية»، فإن ذلك سيكون نصرًا كبيرًا لهم ولتاريخ الإنسان.

هذا في عداد بديهيات التصور المادياني للتاريخ. إذا كان لمصطلح «المادياني» معنى، معنى إيجابي، صحيح، فهو هذا المعنى: الاعتراف بالواقع، هذا الاعتراف الذي هو أصعب من «المعرفة»، لكنه الشرط الأوّلي لكل معرفة حقّة.

ما نريده شيء وما يحصل شيء آخر. هذا تعليم المادياني على التاريخ. والاعتقاد بأن هذا ينطبق على الماضي فقط، أو الاعتقاد بأن «الاشتراكية العلمية» تنقلنا بقفزة من اللاوعي إلى الوعي، من عدم التطابق إلى التطابق بين النتائج والأهداف، بين الوقوع والتوقّع، بين الموضوعي والذاتي ...إلخ، اعتقاد باطل، يحوّل الماركسية إلى سحر، وحركة العمال والشعوب إلى أبطال وملائكة أو إلى ملائكة أبطال. هذا المفهوم الأخير متناقض. فالملائكة ليسوا أبطالًا والأبطال ليسوا ملائكة.

الماركسية تحقق قفزة، لكن ليس من الصفر إلى التمام، من مطلق إلى مطلق. هذان المطلقان عَدَم.

يريد النجار أن يصنع طاولة معينة، يصمّمها يصنعها فعلًا. النتيجة تتطابق مع الهدف بنسبة 99٪ أو أكثر. إن تحويل العالم ليس صنع طاولة. إن تحويل العالم هو أولًا تحويل العالم. المتعدّي يرتكز على اللازم. العالم ذاتٌ. ليس خشب النجار أو جلد الحذّاء أو المادة الصوتية في أذن **بيتهوفن**. الواقع له منطق، منطقه، لا منطق الذات الثورية. الموضوعية هي الاعتراف بأن الموضوع ذات sujet، الذاتوية تحط الموضوع إلى مادّة.

ثمة فرق بين النتيجة والهدف، بين الموضوعي والذاتي. البشر ينتجون وجودهم، يصنعون تاريخهم، دائمًا، لكن ليس كما يريدون.

التصور المادياني للتاريخ هو هذا التأكيد ببنوده الثلاثة.

الماركسية الستالينية ألغت إنتاج الأشياء والوجود، أكّدت صنع التاريخ، ضخمت الوعي والحزب. ألغت مفاهيم ومسائل التموضع، التوقعن، التخورج، التغرّب. هذا الإلغاء سُمّي المادية التاريخية والمادية الجدلية.

بالحقيقة، إنه مثالية، ذاتوية، إرادوية.

التاريخ جوهريًا، ليس تاريخ الثورات الشعبية. وفي التاريخ، ثمة فرق كبير بين الثورات- الانتفاضات والثورات- التحولات.

الثورة- التحول غير الثورة- الانتفاضة هي انتفاضة أو ثورة ملايين الناس، الفقراء، الكادحين ...إلخ، ضد الظلم والاستغلال، من أجل العدالة، وبدافع واقع لا يطاق أو لم يعد يطاق. الانتفاضات

الشعبية في تاريخ البشر تعدّ بالآلاف بعضها كبير جدًا. لعل أول ثورة شعبية هي ثورة فلاحي مصر في عهد المملكة القديمة بعد بناء الأهرامات، أي منذ أربعة آلاف عام. تاريخ الصين مليء بالثورات الفلاحية الشعبية، الكبيرة والصغيرة، المتكررة خلال ثلاثة آلاف سنة، والتي لا مثيل لها من حيث العدد والحجم في تاريخ الشعوب الأخرى. أشهر ثورات العبيد في إمبراطورية روما ثورة أونوس (يونس؟) السوري الصقلّي وثورة سبارتاكوس الذائعة الصيت. لنضف ثورة الزنج في العصر العباسي الأوّل وثورة توسان يوفر تور أواخر القرن الثامن عشر في سان دومنغ. وهناك أيضًا عشرات الثورات التي قام بها الفلاحون الأقنان في شتى بلدان أوروبا ولنذكر بشكل خاص حرب الفلاحين الألمان (سنة 1525) وثورة بوغاتشوف في روسيا (القرن الثامن عشر) وهناك الثورات البورجوازية الأربع أو الخمس: الهولندية (1600)، الإنكليزية الأولى والثانية (القرن السابع عشر) الأميركية، الفرنسية (1789)، وثورات القرن التاسع عشر، أميركا الإسبانية، اليونان، الصرب، ثورة 1830 (باريس، بروكسل ...إلخ)، ثورات 1848 أو «ربيع الشعوب»، كومونة باريس 1871 ...إلخ. وأخيرًا ثورات القرن العشرين... هذه هي الثورات- الانتفاضات.

الثورة- التحول هي الانتقال من حال إلى حال. حسب الديالكتيك، في أبسط وأشهر أشكاله، التحول= قفزة، تغيّر الكيف، انقطاع في سلسلة التطوّر.

المثال الأشهر هو تحوّل الماء (أو أي مادّة أخرى، مثلًا الحديد) من حالة فيزيائية إلى حالة فيزيائية أخرى. الحالات الفيزيائية ثلاث: صلب وسائل وغازي. الأجسام من حولنا صوالب وسوائل وغازات هذا حالها، حالتها، وضعيتها، شكلها. حين يقول بعضنا سوائل وغازات ويمتنعون عن كلمة «صوالب» ويقولون بدلًا عنها «أجسام صلبة» فهم يبقون دون المفهومية، دون المنطق، يبقون مع الصلب، أو يعارضون «الحلّ»، إذن العلم. يبقون في مستوى الإدراك: فعلًا، الأجسام من حولي هي جميعًا أجسام صلبة. ولكي أصل إلى سائل يجب أن أذهب إلى المطبخ لأتناول ماء من البرّاد وإذا أردت الوصول إلى غاز، يجب أن أفكر في الهواء الذي أتنفسه حاليًا. العلم الفيزيائي يتخطى هذا المستوى، يخرقه، يتكلم عن ذرات، وعن ترتيب وعلاقات ...إلخ، والفلسفة المفهومية تذكّرني بأن الماء- السائل وبخار الماء والثلج هم جميعًا ماء، H_2O. وإذا ما قال لي أحد، بالمقابل، هذا هو الجوهري: H_2O، وهو واحد في الحالات الثلاث، يجب أن أردّ عليه فورًا: لا تبالغ، الحالات الثلاث هي أيضًا جوهرية «تمامًا» أو لا شيء جوهري: كل الأشياء في النسبية، في التعالق، في التعاقل.

لكن مثال الماء الشهير هو بالضبط الميكانيك، ميكانيك التحول. ميكانيك علم الحركة، منطق الحركة، ديالكتيك الحركة. والحركة مفهوم بسيط جدًا. هنا نحن مع التحوّل كحركة. ونؤشر على كم وكيف، نفصل القضية إلى كم وكيف، نقيم المجرّدات المفهومية: الحركة، النقطة، النقطة العقدية، علاقات القياس. تحول الماء الظاهر يقودني إلى المستوى غير الظاهر، إلى الكتيلات والتكاتل كتفسير للحالات.

لا التحوّل مستنفَذ في مجرّد الحركة، ولا التاريخ البشري، تاريخ الوجود البشري، مستنفذ في التحول. ولا معنى للتحول بدون فكرة الحال أو الحالة état.

هذه الفكرة الأخيرة تُضَمَّن فكرة ثبات، استقرار. وهي تعطي لغويًا عند الأوروبيين فكرة الدولة état. كما تعطي فكرة الستاتستيطيقا، منطق الحالة، أو في ترجمتنا العربية المتداولة علم الإحصاء.

هـذا العلـم، الـذي أدعـوه منطـق الحالـة، قائـم لا علـى رفـض (؟) المصادفـة، بـل علـى إعـلان المصادفـة، العَـرَض، هيمنـة العـرض، كونيـة العـرض ...إلـخ، وعلـى كشـف منطـق هـذا العَـرَض. بتعبيـر آخـر، إنـه اعتـراف جـذري بالعشـوائية وقوننـةُ العشـوائية. لنقـل أيضًـا أنـه «علـم الزهـر». كلمـة «الزهـر» (زهـر الطاولـة) العربيـة أعطـتle hasard، المقولـة الفلسـفية العلميـة السـيّدة: المصادفـة. علـم الزهـر، نظريـة الحظـوظ، حسـاب الاحتمـالات، علـم الستاتسـطيقا، علـم باسـكال وهايزنبـرغ وديموقريـط.

وشعار هذا العلم المادياني والميكانيكي الجبار وهو: قانونية الكبائر ترتكز على عشوائية الصغائر.

أي: إذا كان هـذا الجسـم أو الكتلـة ثابتًـا وصامـدًا فـي مكانـه، فـلأن الجسـيمات أو الكتيـلات molecules الملاييـن التـي تتألـف منهـا متحركـة جـدًا ولأن حركتهـا عشـوائية، متضاربـة، متحايـدة. هـي متحركـة، هـو هامـد، سـاكن، جامـد.

وفكـرة القانـون فكـرة ثبـات. هـذا واضـح عنـد هيجـل ولينيـن (مملكـة القانـون الهادئـة أو ملكـوت القوانيـن الهـادئ). ولذلـك فـإن الديالكتيـك هـو أساسًـا وبيـن جملـة أمـور تجـاوز لفكـرة القانـون، أي معرفـة مـا القانـون والإعـلان أن فكـرة القانـون ناقصـة، غيـر كافيـة، وأن فـوق جميـع القوانيـن قانـون (بالمفـرد)، لوغـوس...

لنقـل: لهـذا السـبب، كرهًـا بالثبـات، هنـاك جيـل «ماركـسي» كبـير أدار ظهـره لفكـرة القانـون، رفـع لـواء الصـير ضـد الكـون، **هيراقليـط** ضـد **بارمنيـد**، وكأن «القانـون» (بالمفـرد) ليـس بالضبـط موقـف هيراقليـط أولًا. عنـد هيراقليـط، الأسـماء قوانـين الطبيعـة، قوانـين العـالم ...إلـخ، والمقـام الأعـلى عنـد هيراقليـط هـو لـ: الله، اللوغـوس، الاسـم، القانـون (بالمفـرد).

التـراث الماركسـي المؤسـف (سـتالين) أشـاع «إلحـاد هيراقليـط» (؟) نشـر بعشـرات الملاييـن مـن النسـخ قولـه: العالـم لـم يخلقـه أي إنسـان ولا أي إلـه، سـتالين الـذي نقـل هـذا القـول مـن ملخـص لينيـن لكتـاب لاسـال عـن هيراقليـط، اسـتغنى عـن الشـكل الآخـر لهـذا القـول نفسـه: العالـم لـم يخلقـه أي مـن الآلهـة. واسـتغنى بالتمـام عـن «اللـه، اللوغـوس، الاسـم، القانـون». إن القـارئ إذا تحمّـل عنـاء العـودة إلـى ملخـص لينيـن، لوجـد فيـه اللـه Dieu بحـرف أول كبيـر مقابـل وضـد أي إلـه ancun dieu بحـرف أول صغيـر. لنقـل: اللـه الهيراقليطـي نافـي الآلهـة. كذلـك هيجـل «النكـرة المطلقـة» ضـد فكـرات ومخططـات بعـض علمـاء الطبيعـة بصـدد تطـور الأنـواع، حسـب شـرع ممتـاز لإنجلـز فـي جـدل الطبيعـة. و«المفهـوم» بمعنـى هيجـل كحـادّ للمفاهيـم بالمعنـى العـادي أو الأرسـطوطيلي.

مذهـب هيجـل هـو مذهـب الإنسـان والتاريـخ، مذهـب الصيـر- التقـدم والارتقـاء (بخـلاف هيراقليـط!). الإنسـان غيـر الطبيعـة- الكوسـموس. تاريخـه خـط صاعـد.

فـي كل ديالكتيـك، الدائـرة سـيّدة. الديالكتيـك الحديـث- هيجـل الآتـي، عـدا عـن اليونـان، مـن شـيء آخـر- يضيـف الخطيـة، التقـدم، الصعـود، تاريـخ الإنسـان.

نظريـة سـتالين المعلنـة اسـتوعبت الإنسـان فـي الطبيعـة، عمّمـت التطـوّر التقدمـي الصاعـد أزليًـا علـى الطبيعـة، شـملت كل الأمـور تحـت جبـروت كلمـة développement الدامجـة، واعتبـرت الدائـرة والدائريـة والـدوران فيتافيزيائيـة لا جدليـة، صـوّرت الأمـور وكأن هيراقليـط ليـس دورانيًـا بـل هـو صعـودي ارتقائـي...

وهـذا كلـه محـال. محـال مـن وجهـة النظـر الماديانيـة ومـن وجهـة نظـر الديالكتيـك. وهـو يتعـارض مـع عشـرات الأقـوال لإنجلـز وماركـس ولينيـن علـى حـدّ سـواء.

لكـن واقـع سـتالين الروحـي غيـر نظريتـه المعلنـة. سـتالين يدعـي اسـتنتاج علـم المجتمـع والسياسـة مـن الطبيعـة. بالحقيقـة إنـه يفعـل العكـس. سـتالين يبسـط الإنسـان وتاريخـه سياسـة وحـزب البروليتاريـا علـى الطبيعـة وتاريخهـا. إنـه «أوغسـطيني طبيعـي» وهـذا تناقـض فـي المعنـى، أو «هيراقليطـي- أوغسـطيني» (تناقـض أيضًـا!) يرفـع لـواء هيراقليـط ويجهـل أوغسـطين.

لكـن لنأخـذ بمخططـه عـن تاريـخ الإنسـان: المشـاعية البدائيـة، مجتمـع الـرق، المجتمـع الإقطاعـي، المجتمـع البورجـوازي الرأسـمالي. هـذه فعـلًا نمـاذج، أنمـاط، حـالات كبيـرة. لنتـرك جميـع «التفاصيـل»، ولنسـأل التاريـخ والثورتيـن اللتيـن نحـن بصددهمـا: الثـورة- التحـوّل والثـورة- الانتفاضـة. أي لنسـلك، بوعـي، مسـلك التجريـد، لنقبـض علـى الخـط.

إن الانتقـال مـن المشـاعية إلـى النظـام العبـودي هـو ثـورة- تحـوّل. كذلـك الانتقـال مـن النظـام العبـودي إلـى النظـام الإقطاعـي. وهكـذا دواليـك.

إذا كان لكلمـة ثـورة أو لكلمـة قفـزة اسـتحقاق، فهـو هـذا الاسـتحقاق، وإذا كان لمثـال المـاء الـذي ركـب عليـه سـتالين فائـدة بالنسـبة لمعرفـة التاريـخ (تاريـخ البشـرية) فهـو هـذه الفائـدة.

الانتقـال مـن المشـاعية إلـى العبوديـة، مـن مـا قبـل التاريـخ إلـى التاريـخ، مـن الهمجيـة والبربريـة إلـى الحضـارة والمدنيـة، مـن القنـص إلـى الإنتـاج بحصـر المعنـى، مـن الصيـد والقطـف إلـى الزراعـة والرعـي، مـن قتـل البشـر وأكل لحومهـم إلـى أسـرهم واسـتعبادهم وتشـغيلهم.

أخيرًا، لا أدري بماذا أنهي هذه الرحلة الطويلة.

لعـل أفضـل خاتمـة مـن رجـل يـدرك ويعلـن، أنـه يتكلـم باسـمه الشـخصي، رغـم كثـرة شـواهده غيـر الثانويـة أو الجانبيـة مـن أعـلام الماركسـية الثلاثـة إنمـا يتكلـم دومًـا باسـمه الشـخصي، ويعلـن أنـه حتـى حيـن يقـول إن هـذه الطاولـة موجـودة أو دمشـق عاصمـة سـوريا أو ماركـس ألـف كتـاب رأس المـال أو لينيـن انحـاز بعنـف لهيجـل ضـد الماركسـية السـائدة ولا سـيما الماركسـية الثوريـة السـائدة، فهـو يُفْصـح عـن رأيـه الشـخصي أولًا وأخيـرًا، تـاركًا للقـارئ أن يقـوم هـو بواجبـه الشـخصي كقـارئ ومفكّـر وعامـل، هـي مـا يلـي:

لا يوجـد، بالنسـبة للفكـر العربـي اليـوم، وللوعـي العربـي، ولوعـي كل إنسـان فـي بـلاد العـرب جميعًـا بـلا اسـتثناء ولا فـرق سـوى مسـألتين عُلْيَتَيْـن: المسـألة الماركسـية والمسـألة الدينيـة.

هاتان المسألتان عالميتان. المسألة الدينية عند العرب هي أيضًا أو أساسًا المسألة الإسلامية.

مسألتان. هناك عندنا من يحب «القضية» ولا يحب المسألة. بالنسبة لي، لا توجد قضية جديرة إلا وهي أيضًا مسألة ومشكلة ومعضلة، دومًا.

كونهما عالميتين يفرض كونهما عربيتين. أكاد أقول: لا فرق في ذلك.

إذا سُئلتُ ما نقطة الضعف في المجلات العربية الفكرية والثقافية اليوم وإذا فرضت عليّ الإجابة بسطر واحد فأنا أقول: بُعْدُها عن المسألتين المذكورتين.

فالمسائل المطروحة بديل ثانوي أو مشتق دوني أو شيء تالٍ.

هكذا في حيثية المسألة الأولى المسائل المسماة التقدم، الاشتراكية، الحداثة، العقلانية، العلمية، الليبرالية ...إلخ.

هكذا في حيثية المسألة الثانية المسائل المسماة التراث، الثقافة، الحضارة.

والمسألة القومية، في نظري، التي هي فوق كل شيء، مسألة الوحدة العربية، هي، كمسألة وقضية، حاصل المسألتين، بالنسبة للعمل الفكري المسؤول، يريد بعض المفكرين إغراق الدين في الثقافة. هذا باطل كبير. الدين غير الثقافة وغير الحضارة وغير القومية. الدين يدخل في تكوين الطابع الثقافي- القومي. يمكن أن أبين أيضًا أن التصريح يتّفق مبدئيًا مع ستالين ذاته الذي اهتم اهتمامًا مشهورًا بالأمة والقومية، ويتّفق مع الماركسية وتراثها الجيّد مع الفكر الماركسي. إنه نوعًا ما بديهيّ. وبديهيّ أيضًا أن الطابع الثقافي القومي يأتي أيضًا بالضبط من الوجود المعيّن، من الواقع والحياة، من الإنتاج وشروطه الجغرافية- التاريخية. والدين من جهة لا يستنفد بتاتًا في الثقافة والطابع القومي والشخصية القومية والحضارة الدين إيمان وعقيدة. وإذ يغدو من البداية وحكمًا، بحكم الدنيا الزمكانية دومًا، إيديولوجيةً وثقافة، وتشريعًا بشريًا وإيجابيًا فهو «يؤوب» كإيمان وكعقيدة في جملة كبيرة متدامجة تفرض نفسها على الوعي كوحدة لا تنفكّ. والعنصر الخالد في الاعتراض هو الاعتراض على هذا الإغراق وهذا «التشاكل»، هذا الاعتراض يتخذ في التاريخ ألف شكل، تستحق جميعًا التثمين، أي وعي عنصرها الاعتراض المعني والمحدَّد تمامًا.

وقد لا يكون بلا فائدة أن أتكلم عن المسيحية والعالم المسيحي وفكرة الكنيسة العُلْيا. إن المسيحي المؤمن والواعي دينه إنما يؤمن على نحو أو آخر أن المسيحي الحقيقي وكل مسيحي حقيقي، إنما هو أرثوذوكسي (العقيدة العليا، السنّة العليا والسنّة الأولى أو السلف وكلاهما دومًا موضع خلاف. لكن بالضبط إذن يبقى مسعى الحقيقة والحياة) وكاثوليكي (مَسْكونيّ، عالمي، كوني، الجامعة أو الأمة المسيحية. أمة المسيح، أمة الله) وبروتستانتي (محتج، معترض). والوصف الثاني يتراوح في تاريخ الدنيا، بين أمّة البشرية، أمة آدم -المميَّز في الخليقة والذي من التراب- فكرة الخلاص الكونية، من جهة وطائفة مسيحية بعينها تعتبر نفسها سفينة نوح المحاصرة بطوفان الوثنيين أو الكفار والأميين (الأمم غير المسيحية، الضالّة، البدائية، التي لم تبلغ الحقيقة، العدوّة، والتي تستحق الشفقة) و«المنشقين» و«الهراطقة» مع مكان ما داخل هذا المجموع لليهود والمسلمين. هكذا عصر **توما الأكويني** وقشتالة وما قبله وما بعده الذي يمكن أن يستمرّ حتى زمن الـ Syllabus أو «مختصر أغلاط من زمن» (1866) أو حتى 1948 بل وحتى اليوم وغدًا عند البعض أو عند الكثيرين. لكن مما لا شك فيه أن تحوّلًا إيجابيًا متناقضًا بدأ منذ مئة عام، اشتد في القرن العشرين، وتحقّق في الثلاثين سنة الأخيرة. اليوم كما

أعتقد، إن المبدأ السائد في الكنيسة الكاثوليكية الرسمية ليس فقط في لاهوت التحرير أو لاهوت التقدم أو لاهوت الثورة هو -بمصطلحات أو مفاهيم المسيحية- أن الخلاص هو لجميع البشر.

قد يعتقد القارئ أن مثل هذه الأمور لا شأن ولا قيمة لها فهي أمور دينية وبعيدة عن العلم أو قد يعتقد أنها مفيدة تكتيكيًا ...إلخ، أنا أعتقد أنه مخطئ بالتمام. هكذا أمور هامة، وحيوية، راهنة. وهي ذات أهمية حاسمة في مستوى نابض الروح والذهن والفكر والمعرفة، في مستوى الضمير والوعي. والمهمّ جدًا أن يُشار إلى أن الموقف الحالي في الكنيسة -وعند غالبية رجال الدين وغالبية شعب الإيمان، على ما أعتقد- هو عودة إلى موقف الآباء الأوائل والكنيسة الأولى من فوق ركام العصور التي تُقَدَّر إيجابيًا ونقديًا. وبالمقابل، حتى لاهوت التحرير الثوري الأميركي اللاتيني، إذ يتبنى فكرة الثورة، فهو يعترف بالتقدم، بالعمل التقدّمي والبنائي الذي صنعه التاريخ البشري الذي معه وفيه الكنيسة المرئية، المؤسَّسة الراعية والشعب الرعية.

وبالمقابل، إذا ما قرأنا كتاب **الأب كونغار Congar** وهو من «الرسميين» أو الوسطيين عن «الكنيسة الكاثوليكية وفرنسا الحديثة» فسنجد فيه سجلًا بأخطاء وجرائم الكنيسة، عبر التاريخ، مع إدانة جليّة «لا ريب فيها» لكن فيها تحذيرًا من تبسيطات.

المشاركون في هذا العدد

الزهراء سهيل الطشم
أمل حويجة
أمل فارس
بينت شيلر
جبر الشوفي
جمال الشوفي
حازم نهار
راتب شعبو
رياض زهر الدين

ريمون المعلولي
سامر إسماعيل
سائد شاهين
سعيد بوعيطة
سلوى زكزك
سميح شقير
شوكت غرز الدين
شيرين عبد العزيز
عبد الرحيم الحسناوي

عبد الرزاق دحنون
عبد الله أمين الحلاق
عمّار الأمير
محمد عمر كرداس
مضر رياض الدبس
مهران الشامي
نور الهدى مراد
هدى سليم المحيثاوي
ورد العيسى

ميسلون
للثقافة والترجمة والنشر
Maysaloon for Culture, Translation and Publishing

السعر 15 دولارًا
2757-8909